الأبعاد الفلسفية للانعكاسات النفسية في مرحلة الطفولة وتوظيفها في أعمال جرافيكية معاصرة

THE PHILOSOPHICAL DIMENSIONS OF PSYCHOLOGICAL REFLECTIONS IN CHILDHOOD AND THEIR USE IN CONTEMPORARY GRAPHICAL WORKS

د. **دعاء أحمد الصاوي**
قسم الجرافيك – كلية الفنون الجميلة – جامعة الأقصر، جمهورية مصر العربية

Dr. **Doaa' Ahmed El Sway**
Graphic Department, Faculty of Fine Arts, Luxor University, Egypt

doaa.ahmed@ffa.luxor.edu.eg., e.duaa_art@yahoo.com

الملخص

تعتبر مرحلة الطفولة من المراحل الهامة التي لها أثر في تكوين شخصية الإنسان، فهي تشكل مخزونًا هائلًا لمشاهد يصعب نسيانها؛ قد يستثمرها الإنسان وقد تتحول عند البعض إلى عقد نفسية وفي زخم الحياة ومتناقضاتها لم يكن عالم الطفولة بمنأى عن أن تمتد إليه أخطاء وخطايا الإنسان بما تملكه من أخطار تنذر بعواقف جسيمة الأثر، وبعيدة المدى لحاضر الطفل ومستقبله فيما يتعرض له من أشكال العنف والإساءة التي تسلب منه طفولته وتبدد مايكمن فيه من طاقات الإبداع.

والفن لغة تعبيرية يحاول الفنان من خلاله إيصال مشاعره وأفكاره والتنفيس عنها وعن ذاته وعما يحيط به، فالفن نشاط يتضح في كيف تُرى الأشياء والتعبير عنها، ويرتبط بشكل أو بآخر بحالتنا النفسية، وهو أحد الوسائل التي تساعد علي الخروج من بوتقة المرض النفسي، فقد تؤثر بنا الخطوط والألوان فنشعر أنها تمثلنا وتحاكي واقعنا، وقد تثير فينا العديد من الذكريات، كما يمكننا تحقيق قيمًا جمالية وتعبيرية ذات فاعلية لإنعكاسات فترة الطفولة في أعمال جرافيكية معاصرة.

الكلمات المفتاحية

سيكولوجية الطفل؛ فن الجرافيك؛ القيم التعبيرية

ABSTRACT

The Childhood is one of an important of stages, that influence the formation of a human personality, as it constitutes a repository of scenes that are difficult to forget. A person may invest in it, and for some it may turn into a psychological complex. In the momentum of life and its contradictions, the world of childhood is not immune from human mistakes and sins being extended to it, with the dangers it poses that warn of serious, far-reaching consequences for the child's present and future, as he is exposed to the forms of violence and abuse that are robbed of him. His childhood and the dissipation of his creative energies.

Art is an expressive language through which the artist tries to convey his feelings and thoughts and express them, himself and what surrounds it. The art is an activity that manifests itself in how things are seen, remember the past, and express it. It is related in one way or another with our psychological state, & it is one of the Effective means that helps to emerge from the crucible of psychological illness, as it may affect, We use lines and colors and feel that they represent us and mimic our reality. They may evoke many memories in us. We can also achieve effective aesthetic and expressive values for reflections of childhood in contemporary graphic works.

KEYWORDS

child psychology؛ graphic art؛ Expressive Values

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

١. المقدمة

إن عملية الإبداع تُشَكِّل ضرورة هامة خاصةً في العصر الحالي، والفن هو المحرك والسبيل لتفهم حاجات الأطفال والإتصال بهم أيضًا، فهو يلبي حاجات إنسانية عُليا للفرد، تحقق الذات، تحقق للفرد إمكاناته ومنها الإبداع.

فمن المهد إلى اللحد، ومن الولادة إلى الشيخوخة، يقضي الإنسان سنوات طويلة من عمره مُحملاً بكثير من الذكريات، فلقد كانت الذكريات على الدوام محط إهتمام ودراسة للكُتَّاب والأدباء والعلماء ومصدرًا ثريًا ملهمًا للفنانين وإبداعاتهم.

ولا ينسى أي منا - مهما بلغ به من العمر- خطواته الأولى ولحظاته الأولى وإحساسه الأول بكل ما حوله، في لحظةٍ وجودية تقود الإنسان إلى إكتشاف ذاته وإكتشاف الحياة عمومًا والتي تظل لغزاً كبيراً وتزداد غموضاً مع الأيام بالنسبة له .. لذا تبقى ذكريات الطفولة هي الأقرب والأجمل عند الأغلب من البشر، حاملةً معها موسيقى من نوعٍ فريد لا يتدخل في صياغتها أحد، وأحيانًا تصبح على العكس من ذلك، وكأن المسافات التي نقطعها والدروب التي نمشي فيها تقودنا إلى العودة حيث البداية .. حيث جذورنا.

"إن الحياة بما فيها هي ذلك المحرك لمختلف المشاهد والصور والمناظر والدلالات التي تشكل العمود الفقري للفن التشكيلي، بإعتباره يحمل رموزًا متنوعة" فهي تبوح بأسرارها للجميع ويتزاوجون معها تزاوجًا حقيقيًا، غير أنها تمثل للفنان مصدرًا للإبداع فهى للجميع هبة ربانية وللفنانين منهم خير عون للإبداع، إستقى منه أقدم الفنانون رؤاهم، وما زالت الحياة بما تحمله من معانٍ تحتضن المبدعين وتلهمهم الرؤيا وتمدهم بمبدعات الفن، فهي المعجم للفنان"(رانيا راضي ٢٠٢٤م، ص ٢١) (بتصرف).

"لتكون تلك الأعمال الفنية هي الرصيد الفني لأعمال تعتمد على الوصف الواقعي أو الناجم عن الشعور الداخلي للفنان معبرًا بها عن مكنوناته، فشخصية الفنان التشكيلي ثرية الأحداث يغلب عليها عند البعض طابعًا من الإنفعالات النفسية، مع المحاولات الكثيرة للتمرد على واقعهم بحثًا عن الإبداع، والتطلع إلى حياةٍ ذات قيمة ومستقبل مشرق، ومن هنا تعتريه حالة من القلق لظروف وأحداثٍ يعايشها، فيطلق الفنان ما في أغوار نفسه على الفراغ ومساحات الفضاء البيضاء"(فتحي جروان، ٢٠١٣م، ص ١٩) (بتصرف).

مشكلة البحث:

- إن عقول الصغار تستقبل كمًا هائلًا من الصور البصرية، خصوصًا في مرحلة الطفولة، وهي مرحلة دقيقة جدًا يترتب عليها حاضرهم ومستقبلهم، فيجب أن تتسم بالإتزان والإستقرار النفسي والأمل، ولكن أحيانًا يحدث العكس، فيباغتهم القدر ويعاكس رغبتهم بأحداث لم تكن متَوقَعة مطلقًا، مما يترتب عليه أن تُوَجَه الوظائف الإنفعالية في المراحل الآتية من حياتهم .. فهل هناك دور للفن التشكيلي في بناء شخصية الطفل وتقويمها وتقديم الدعم المعنوي له حتى يستطيع مواجهة التحديات المجتمعية في مراحل عمره المقبلة ليصبح شخصًا قادرًا على الإبداع؟
- كيف يمكن للعوامل النفسية أن تؤثر بشكل واضح في حياة الطفل أثناء النشأة وتحفظ بذاكرتة في شكل صور بصرية؟
- وهل يمكن أن تظل كامنة لفترات طويلة لتنعكس فيما بعد على رؤية الفنان الجرافيكي الإبداعية؟
- هل يمكن الإستفادة بالإيجاب من التجارب السلبية في مرحلة الطفولة لإنتاج إبداع فني جرافيكي؟

أهمية البحث:

إن المعالجات التشكيلية للموضوعات المستمدة من الحياة تساعد الفنان فى التعبير عن فرديته، فإظهار مدى قدرات الفنان على إبراز الملامح الإنسانية لواقع مجتمعه والكشف عن حقائق أغوار النفس البشرية لهو معيار من معايير أصالة الفنان وصدقه، لذا حاولت الباحثة التعبيرعن بعض الإنفعالات والحالات الشعورية التي يمر بها الطفل في مراحل مبكرة من عمره، وكذلك بعض المؤثرات التي تعرض لها، ودور رب الأسرة (الأب) - غيابه أو حضوره في حياة أبنائه، والأبعاد الفلسفية لبعض الأنماط المختلفة للإنسان من واقع مشاهد عايشتها الباحثة في مرحلة الطفولة، كما يذخر التراث السيكولوجي اليوم ببحوث متنوعة ووفيرة عن علاقة الفن بالعوامل البيئية والثقافية والظروف المجتمعية والإدراكية والعقلية، ولسبر أغوار الشخصية والكشف عن خباياها، وكأداة للعلاج النفسي، وكوسيلة للتعبير عن الإستعدادات الإبداعية وتنميتها.

أهداف البحث:

- التعرف على أهمية المكان والفن والثقافة في تنشئة الطفل.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

- الكشف عن علاقة الفن بالعوامل البيئية وأهمية البناء النفسي والتفكير الإبداعي لدي للطفل.
- إثبات مدى الروابط بين الدراسات السيكولوجية للطفل ومدى إنعكاسها على الفنان الجرافيكي.
- البحث عن التجارب النفسية والشعورية التى يمر بها المرء فى مصادمات ومشاحنات مع المواقف الحياتية، وكيفية التعامل مع الأزمات والضغوط ولحظات الإنتصار والألم من خلال التفكير الإبداعي.
- التعرف على القيم الجمالية والتعبيرية للإنفعالات النفسية للطفل من خلال بعض الأعمال الفنية الجرافيكية.
- الكشف عن القيم الجمالية لإبداعات الفنان الجرافيكي التي تتناول بعض الإنعكاسات النفسية في مرحلة الطفولة نظرًا لما تحتويه من قيم تشكيلية لم يتم الكشف عنها جماليًا.
- إلقاء الضوء على أثر الثقافة والمجتمع في الإنتاج الفني ودور فنون الجرافيك ووظيفتها في بناء المجتمع وأثرها على الوعي الجماهيري.
- إلقاء الضوءعلى أهمية إنشاء مراكز تأهيلية متخصصة في العلاج بالفن وتقويم السلوك والدعم المعنوي للأسرة والطفل، لتحقيق مستقبل أفضل وأكثر شمولًا ومرونة واستدامة للجميع.

منهج البحث:

انتهجت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التجريبي، من خلال مجموعة من الأعمال الفنية، حيث يتم عرض الأعمال موضوع الدراسة وتناولها بالوصف والتحليل للإجابة على تساؤلات مشكلة البحث ولتحقيق أهداف البحث.

حدود البحث:

- الحدود المكانية: مصر.
- الحدود الزمانية: منذ بداية عام ٢٠٢٢م وقت القيام بالتجربة العملية وحتى النصف الأول من عام ٢٠٢٤م.

الدراسات السابقة:

- مي عماد (٢٠٢١م) القيم الجمالية لرسوم الكتاب المستوحاة لمرضى الإضطراب النفسى، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان، مصر.
- نسمة محرم (٢٠٢١م) رؤية تشكيلية لموضوعات الحنين إلى الماضي، من خلال فن الجرافيك من القرن الـ ٢٠، ٢١م، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان، مصر.
- رانيا راضي (٢٠٢٤م) رؤية فلسفية لسيكولوجية القلق الوجودي في أعمال فناني الجرافيك في أوروبا، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الفنون الجميلة، جامعة الأقصر، مصر.

٢. الإطار النظري للبحث:

المخزون البصري والذاكرة وأثرهما على الطفل:

يذكر بعض الأخصائيون في العلاج السلوكي والنفسي أنه "يبدأ الطفل في عمر مبكر في التخزين بالذاكرة، ويخزن في الذاكرة في هذه المرحلة المواقف التي يتعرض لها – تلك المواقف القوية التأثير – لا سيما الصادمة منها، ويظل أثرها معه إلى أن يكبر، وقد تلاحقه بشكلِ مُفزِعٍ في أحلامه، كما يُؤَوِّهون أن كثيرًا من الأطفال لا يستطيعون التخلص من الذكريات القاسية حتى بالرغم من محاولاتهم تجاهلها، فلا يستطيعون أيضًا، لأنها قد أصبحت جزءً منهم، كما أن بعضهم لا يتذكرون تفاصيلها الدقيقة، ولكنهم يتذكرون المتسببين في هذه المشاعر المؤلمة".
(https://www.rawahel.org/articles-15/4/2024-08:29pm) (بتصرف).
إن المبادىء والمكارم السائدة في مجمعاتنا كثيراً ما تفسد نتيجة لتصرفات بعض الأشخاص .. فمنهم على سبيل المثال لا الحصر ذو النفسيات الفظّة (المتسلّطة) يُخَرّبُون أكثر مما يقدمون شيئًا إيجابيًا يُذكَر ويُحسَب لهم، خصوصًا إذا ما تدثر البعض منهم بأحد الصفات والمزايا الإجتماعية، فإذا ما حدث ذلك، فإنها تسقط كل ما بداخلها من التسلط والغلظة، على الفئة التي تتميز عليها بتلك الصفة الإجتماعية.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

في هذا البحث مجموعة من الأعمال تتناول بعض المشاهد التي لا تزال عالقة في الذهن، فحينما تستحضرها شعور بالغصة يسيطر على الذاكرة يبقيها رهينة لتفاصيل تتعب القلب، فالأشخاص يبقون رهائن لكل ما يحدث في طفولتهم، وبرغم وجود الحماية في الأسرة إلا أن تلك المشاهد تترك تأثيرها على النفس، ولكن دائمًا ما كان هناك إختلاف في وجود "رب الأسرة" والتواجد المقصود هو الدور الأبوي في تنشئتهم ودعمهم وتكوين شخصياتهم .. هذا ما يحظى به الطفل في صغره، مما يساهم في تشكيل شخصيته وبلورتها وإعطائها الفرصة للتعبير عما ترغب، في حين أنك ترى النقيض من ذلك، لأطفال آخرين آبائهم تركوهم لمن يتحكم بمصائرهم، وسمحوا لهم بالعبث بحياتهم وتشويهها طوال مراحل عمرهم، فنشأوا شخصيات تعاني من إضطرابات أثرت على نموهم على المدى البعيد، فقد يؤدي غياب الأب إلى سقوط الأبناء فى أحضان الغرباء وتأثرهم بهم، مما يكون له عواقب وخيمة، فقد غابت هنا مهمة الآباء الأساسية في تنشئة الأبناء ليكونوا أفرادًا ذوي فكر قادرين علي مواجهة ضجيج الحياة.

مقاربة وصفية لبعض الأنماط المختلفة للشخصيات وأثرها في حياة الطفل:

إن لكل إنسان صفات يتميز بها، ذلك بما لا يدع مجالًا للشك، تلك الصفات تميزه عن غيره ومنها أسلوب التفكير، الإحساس والإدراك، وهذه الصفات تُشَكِّل جوهر شخصيته، والتي تعرف بأنها التركيبة الفريدة من الإنفعالات والتصرفات والأفكار، والتي تسمح للإنسان وتساعده على النمو والتأقلم مع الحياة وذلك في الحالة السوية، وتتغير عند البعض مكونة أشكالًا مضطربة من الشخصيات، فالأطفال الذين ينمون في محيط مضطرب، عادةً ما يكون لديهم محاولات للتأقلم مع هذه المتطلبات الغير واقعية والتي يواجهونها بمقدار ما لديهم من طاقات، ومن بعض الأنماط المختلفة للشخصيات التي قد يكون لها أثر في نشأة ونمو الأطفال نذكر منها:

- **الشخصية القوية** يمكن أن ينضوي تحت هذا التصنيف الشخصية الواثقة أو الشخصية "التوكيدية"، تفسح المجال للآخرين للتفكير والإبداع وتحفزهم على الإبتكار والإنطلاق والمحاولة مرات ومرات، مما يُنَمِّي لديهم مهارات ذات قدرة عالية من الإبداع والإنجاز.
- **الشخصية المتسلطة**: تتميز بسلوكها العنيف والقاسي، ولا تكف عن محاولاتها للسيطرة على الآخرين عن طريق وسائل عدة تتنوع بين الإيذاء المعنوي كالإرهاب اللفظي والخوف المستمر، وصولاً إلى الإيذاء الجسدي، ولكنها ضعيفة في داخلها، ولا يمكنها رؤية الأشياء والأشخاص إلا من خلال منظور مشوَّه.

الإطار العملي للبحث:

استخدمت العرائس والدمى القديمة كمصدر إلهام لفكرة الأعمال الفنية باعتبارها أحد الأشياء التي تظل في الذاكرة، وصديقة للطفل، والتجربة (ذاتية) من واقع حياة الباحثة والمعالجة الجرافيكية للأعمال باستخدام Mixed Media بين الرسم الرقمي والرسم اليدوي بالأحبار المائية على الورق، لتوظيف النتاج الرقمي كوسيط لفنون الرسم، وبعض الأعمال منفذة بالرسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير على خشب MDF، وتم الإخراج الفني للإطار الخارجي كونه جزء من فكرة البحث كالتالي:

- الإطار (البرواز) تم تجهيزه بما يتلائم مع المفردات البصرية في الأعمال فيبدو قديمًا للإيحاء بالخشب العتيق الذي نراه في أسقف البيوت القديمة والمحتفظ به فوق أسطح المنازل كشكل من أشكال الاحتفاظ بالذكريات القديمة.

شكل (١) "ماريونيت"، المقاس (٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)، (الخامة: رسم بالأحبار المائية وأقلام الألوان الخشبية والفحم على على الورق).

كعرائس الماريونيت .. أجساد مهترئة لا روح فيها ولا عقل، وتجسيد الأيدى الآدمية تمسك الأشخاص بخيوط تحركها هنا وهناك للتعبير عن القيود، وسواء أكانت قيوداً نفسية أو إجتماعية يعايشها الفرد من الطفولة حتى الكبر، أو قيود الحبس داخل فكرة أو معتَقَد ما فكلُ منهم ضحية .. ضحايا استسلامهم، مما جعلهم كعرائس "الماريونيت" يحركهم يميناً ويساراً.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

في مسرح مظلم يتحركون كعرائس ماريونيت، فلا يوجد أى محاولة لفك هذه القيود، والتغلب عليها والتعايش معها بمنظور آخر، أو رفضها تمامًا لكنهم يتعايشون معها بالرقص، من خلال العمل يتضح لنا الإستسلام الكامل فطبيعة الماريونيت أنها تتحرك على المسرح وفقًا لحركات صانعها ومحركها بالخيوط المقيدة بها، فهم غير قادرين على الرفض أو التغيير، إستخدمت الدمى القديمة في هذا العمل إشارة إلى أجساد متوترة وأرواح مشتتة، بنظرات تائهة، ودمع هارب وعوز للحرية من تحت الملامح، صراخ مكتوم .. بلا صوت، فُطِمُوا وكبروا ونضجوا بما يسمح لأن يكونوا "جزءً من، أو طرفاً" فى تلك المسرحية العبثية التى يحيوها، دمى متراخية وهذا يتضح في إستسلامها الكامل للتحريك، معبرين عن فقدان الإحساس بالمسئولية حتى تجاه أنفسهم، "فحتمًا الحرية والمسئولية مترافقين على هيئة الحرية المسئولة، أما من يعانون من هذه القيود فإن الحرية التي تحفها المسئولية هي في حد ذاتها مصدرًا للقيود". (James Madison, 1904, P 223) والمعالجة الجرافيكية لهذا العمل عن طريق الرسم بالأبيض والأسود، للتركيز على المعنى المستهدَف، وللإشارة إلي الحيادية وعدم القدرة على إبداء الرأي، كما أن التضاد بين الأسود والأبيض جاء ليعبر عن ظلام الإستعباد ونور الحرية بشكل عام، والتدرج بين القاتم والفاتح إنتقال تدريجي لإضفاء بعض التأثيرات الضوئية والظلية لصنع حالة من الإيهام الذي بدوره ينشأ منه إيقاعًا حركيًا للعرائس في التكوين، رغم سكونها الواضح، وبعض اللمسات باللون الأحمر وبشكل مبسط، إشارة للتحذير والإنذار؛ فإن اللون الأحمر، يصنع إستجابة للتحذيرات عن غيره من الألوان الأخرى فى عقل الإنسان، فيُشعِر الشخص بأنّه في وضع يُحتِّم عليه الحذر أو التأهّب، كما يرمز إلي العديد من المعاني الرمزية المختلفة في العمل فجاء تعبيرًا عن الغضب والحدّة، ولإظهار الإنفعال والقوة، حيث يمكن أن تختلف ردود الفعل الفردية تجاه التعبير البصري بشكلٍ كبير، وتسليط الإضاءة على الأيدي والدمي يتفاوت من الخارج إلي الداخل في التكوين للدلالة على الغموض الذي يكتنف المشهد.

شكل ١، "ماريونيت"، رسم بالأحبار المائية وأقلام الألوان الخشبية والفحم على على الورق، أعمال الباحثة ٢٠٢٢م
(٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)

شكل (٢) إسم العمل: "عرائس جدتى" ، المقاس (٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)، (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وألوان خشبية على الورق).

لا يخلو صندوق ألعاب من دمية، فلأجيال عديدة كانت ولا زالت الدمى والعرائس لعبة أساسية لكل طفل، بإختلاف صناعتها سواء صُنِعَت من البلاستيك، أو من القماش، أو إن كانت من العرائس الناطقة، يتعايش معها الطفل كطفلٍ أصغر، له نفس إحتياجاته .. يطعمه ويسقيه، ويهتم بملابسه فتتحول تلك العروسة والدمية المصنوعة من القماش من كونها مجرد دمية للعب إلى فكرة تترسخ في عقله عن مسئولياته مستقبلًا. (https://www.aljazeera.net/women-16/4/2024-01:25am).
في هذا العمل المستوحى من الدمى والعرائس، نشاهد مجموعة من العرائس معلقة على حبل كأنها متراصة لطقوس لعبة ما، بها آثار حريق .. وفي مساحة ثلثي العمل بالأسود الذي له معاني ودلالات في معظمها سلبية في الثقافة واللغة، كالموت الأسود، الصندوق الأسود، وهناك أيضًا مصطلح الكوميديا السوداء في الثقافة الشعبية .. إلى آخره"، والفنانون أيضًا منقسمون في نظرتهم له، كالفنان الفرنسي "كلود مونيه Edouard Mannet" (١٨٤٠ – ١٩٢٦ م) قال عنه الأسود ليس لونًا والفنان الفرنسي "بيير أوجست رينوارPierre- Auguste Renoir " (١٨٤١ – ١٩١٩م) إكتشف مؤخرًا أن الأسود هو ملك الألوان، والفنانة الأمريكية "جورجيا أوكيف georgia O’keeffe" (١٨٨٧ – ١٩٨٦م) إعتقدت أن الأسود يخبيء في وجوده أسرارًا دفينة،

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

والأعمال السوداء للفنان الأسباني "فرانثيسكو دي جويا Francisco de Goya" (1746- ١٨٢٨م) كانت ترمز إلى التشاؤم واليأس، والأسود هنا تمثل في خلفية غامضة كأنها "مرآة مظلمة" - تمثل إنعكاسًا سرديًا لما يحدث في حياتهم، كُتِبَ عليها بالطباشير الأبيض كما تعود الطفل أن يكتب على الحوائط بطريقة عفوية وبخطوط تحفها البراءة، بالتخطيطات الحرة التي يعبر بها على أي سطح كان، منذ بداية عهده بمسك القلم أو ما يشابهه، رثاءً لدميته التي كان يرعاها كطفل أنجبته له الطفولة التي أُدمِيَت أمام عينيه، أبيات من الشعر للشاعر والكاتب القصصي السوري "شوقي بغداديShawky Baghdady " (١٩٢٨ – ٢٠٢٣م) الذي إهتم أيضًا بأدب الطفل.

لِأَمْثَالُهُمْ نَبْنِي وَنَرْفَعُ عَالَمًا عَلَى الْأَرْضِ يَحْيَا الْطِفْلُ فِيْهِ وَيَسْلَمُ

إنه مشهد حقيقي في مرحلةِ مُبَكِّرةٍ من العمر .. يختزل العمل تفاصيل مستوحاة من مشهد واقعي، لأطفال تتراوح أعمارهم بين السابعة والحادية عشر، أن تُحرَق عرائسهم أمام أعينهم ويُمنَعون من ممارسة طفولتهم التي فُطِروا عليها، هذا المشهد وإن كان حقيقيًا فإنه يحمل شعورًا بالشتات والضجر وافتقاد الهوية، وصدمة حقيقية لا يمكن تجاوزها، ليكون العمل بمثابة بوح فني من صفحات الطفولة البِكْر، إن هذا العمل يعكس مشاعر من الألم والصيرورة حتى إنعدامها، كما أنه يتعلق بتجاربنا المبكرة في إختزان الصور بالذاكرة، فـ "الطفل يبدأ منذ حداثة سنه في بناء مخزون بصري له يحتوي على كل ما يراه حوله من أشكال وأحجام وخطوط ومظاهر مرئية في البيئة، يمتليء هذا المخزون على مر حياته وحتى مماته وكأنه خزانة تمتليء بأشرطة الفيديو"(آمنة جاد، ٢٠١٩م، ص ١٩٦).

شكل ٢ ، عرائس جدتى"، Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وألوان خشبية على الورق، *أعمال الباحثة ٢٠٢٢م*
(٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)

إن طبيعة المشاعر الإنسانية التى يواجهها الطفل نتاج لتحديات المجتمع والمؤثرات البشرية المختلفة وضغوط الحياة المحيطة به، وبالتأكيد قد يتأثر بالجانب النفسى للشخصيات التي يعايشها، وشكل الدمى التي تشبه الجسد الآدمى فى التكوين بألوان ترابية توحي بالكآبة والضبابية من أجل التعبير عن الحالات الإنسانية الدفينة، والمشهد الحقيقي الذى يمر به الطفل فى محيط صاخب متأزم، كان يصعب على الطفل التعبير عنه في مراحل عمره المبكرة، ولكنه إختزن صورته بتفاصيلها القاسية وإحتفظ بها في ذاكرته وقلبه.

شكل (٣) إسم العمل:"أيقونة، المساحة (٨٠ ×١١٢سم) × (١٠٨ ×١٤٠ سم) ، (رسم بالأحبار وأقلام الفحم على خشب MDF).

في هذا العمل "أيقونة" عبارة عن دمية تتدلى رقبتها إلى الأسفل، بها آثار حروق، للإشارة إلي أنها لاقت من آثار العنف ما يسبق هذا المشهد، معلقة على جذع شجرة، والذي في الأصل متصل بجذوره في الأسفل، وفي أعلاه يحمل البراعم والأغصان فاستخدم هذا العنصر لإظهار التضاد بين طبيعتين متشابهتين وهما الطفل والغصن، وبالرغم من ضخامة الجذع إلا أن درجات الألوان المتداخلة به، من اللون الأخضر والبني كالدرجات اللونية التي نشاهدها في نبتة صغيرة في مراحل نموها الأولى، فالطفل كالبرعم الصغير فهما في المراحل الأولى لهم يحتاجون إلى الرعاية والإهتمام وليس الإهمال والعنف، ففي أجواء تضج باللامبالاة والسلبية،

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

أصبحت الدمية هنا والتي في الأصل رمزًا للطفل المضطهد مثالًا للترهيب، لمن يفكر أن يخالف ما يملى عليه من أوامر أو من يحيد عن الطريق الذي يرغب "الآخر- المتسلط" في أن يسلكه، وخلف الجذع حاجز من الأسلاك المتضافرة ويظهر من خلفها كل شيء بوضوح، وحتي يرى من خلالها الأجواء التي يرغب أن ينغمس فيها، ولكن ممنوع عليه تخطي هذا الحاجز أو اللعب وممارسة طفولته كما يُحِب ويَجب - ذلك يعني أنه "حتمًا سيتجه يوماً ما إلى فقدان هويّته الذاتية، وهذا يعتبر رافدًا من روافد اللاتوازن النفسي والشتات، مما يُحدِثُ إشكالية لسوء تلاؤم هذه الحالة مع محيطها"(نيفين المصري، ٢٠١١م، ص ٧٤) (بتصرف)، وعن هذا الأسلوب من الأنماط الشخصية والتوجه ينشأ التطرف على إختلاف صوره والعنف كأحد الحلول المتطرفة للمشكلات الحياتية، وكشكل من أشكال التمرد والرفض المعلن للعنف والقسوة.

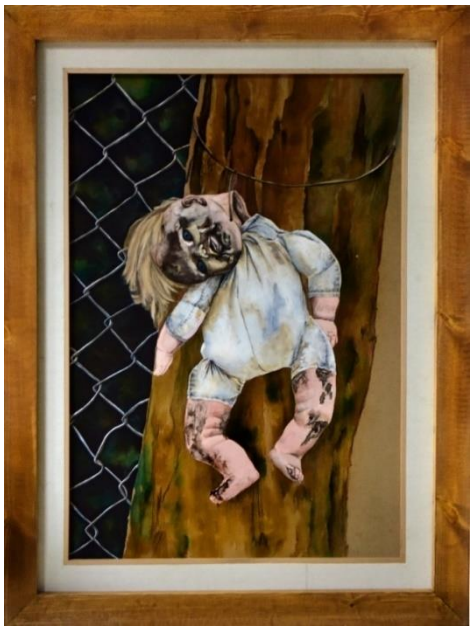

شكل ٤ "طِبق الأصل"، Mixed Media رسم رقمي ورسم بالأحبار المائية والألوان الخشبية على الورق، *أعمال الباحثة* ٢٠٢٢م
(٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)

شكل (٤) إسم العمل: "طِبق الأصل" – المساحة (٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم) – (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم بالأحبار المائية والألوان الخشبية على الورق).

هذا العمل نموذج آخر لممارسة أشكال الترهيب وكانت الدمية هي الرمز المسخدم للتعبير - "طِبق الأصل" - العمل عبارة عن أربعة من الدمي، يرتدون نفس الملابس الباهتة القديمة، إشارة إلي أن هذا النمط من الشخصية ليس بجديدٍ على واقعنا وأن الوصف غير ملائم لإنسان له حقوق وعليه واجبات، يشيرون إلي نماذج حقيقية من الواقع يتشابهون في الشكل، وإنما هم نسخ مكررة، مختلفون في الحجم قليلًا، تبدو عليهم ملامح وتعبيرات مؤلمة، نتيجة وجودهم في بيئة لا تلائمهم، إلى اليمين دمية بأذن واحدة وتعني "لا أسمع" تميل رقبته إلي الأعلي يسارًا تعبيرًا عن عدم إتزانه وفي رقبته قلادة تتدلى منها سمكة رمزًا للحرية التي يأملها، والدمية الثانية علي فمها تنمو خيوط العنكبوت مختلطًا بالأتربة، وتعني "لا أتكلم" للدلالة على عدم السماح بالمشاركة في الحديث وإبداء الرأي أو حتي التعبير عن الألم، الدمية الثالثة مغمض العينين إشارةً إلى "لا أرى" يلتف حوله حبل - مُكَبَّلٌ - غير قادر على الحركة، والدمية الرابعة يحمل تعبيرًا مختلفًا وهو صورة للإنبهار والذهول من هول مايعانيه ويعايشه كل منهم من ظروف قاسية - صورًا متشابهة "طبق الأصل" أو بالأحري "نسخًا"– تمامًا كأنهم "دمى" – مسلوبي الإرادة، أما عن المساحة السوداء بالأسفل هنا نتسائل، هل الأسود يستوطن أعماق العقل البشري؟ فعلى الرغم من التقدم الهائل الذي أُنجِزَ في حقل الأبحاث والدراسات العصبية، وما نعرفه يقينًا هو أن الأسود يمكن أن يثير بداخلنا وفي وعينا الجمعي إحساسًا بالكآبة والعجز وضعف القُوَى. ويُذكَر أنه يرتبط بالتفسيرات الغير عقلانية والتي ترفض الإذلال والإستسلام، (https://prom2000-12/2/2024-12:45am)، فهذه المساحة المستطيلة في أسفل التكوين بالأسود إشارة إلي مصير غامض أو شيء دفين في حياة الإنسان، والذي يرفض أو يأبى تذكره أو الحديث عنه، كما تبدو الدمى في حالة عدم إتزان كأنها تتأرجح، لكن وجود العارض الخشبي على جانبي التكوين مع الخط الأفقي له يعطي للتكوين إستقرارًا وتوازنًا للكتل به.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٢، "أيقونة"، رسم بالأحبار وأقلام الفحم على خشب MDF، *أعمال الباحثة* ٢٠٢٢م
(٨٠ ×١١٢سم) × (١٠٨ ×١٤٠ سم)

شكل (٥) إسم العمل:"هي الحياة" – المساحة (٥٧× ٦٧ سم) × (٨٥× ٩٥ سم)، (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام تحبير على الورق).

في العمل "هي الحياة" - رؤوس عرائس بأجساد ملفوفة كجذوع الأشجار التي إستنفذت كل طاقتها وعصارتها، شكل من أشكال فقدان الثقة والإعتزاز بالنفس، وعدم الشعور بالإستقلالية والكيان الفردي للنفس البشرية، وسلب الحرية، وبالتالي تنشأ حالة من الطاعة العمياء، وغياب العقل عن التصرفات والأفعال، فنرى تجسيدًا للخضوع الكامل والرعب، مثيرًا إحساسًا بالنقص والخوف الدائم، وجوه تائهة لدمى أطفال بتجاعيد مُسِن وإرهاق مُنصَب في وجنتي شابة، وجوه باهتة منطفئة، رغم كثافة الألوان بها والتباين القوي في القاتم والفاتح، يحمل كل منها تعبيرًا مختلفًا عن مشاعر شتى، وتستمر الوجوه بالظهور والإختفاء متخذةً منحىً تصاعدياً عبر ملامحهم المثقلة بالبؤس والحزن والندم وعدم الرضا والتعب، ويظل الـ "هؤلاء" عاجزين عن التعبير عن أوضاعهم وعن حاجاتهم والمطالبة بأقل حقوقهم، "حيث رغبة الإنسان في الوصول للأفضل في ظل واقع محفوف بالمخاطر بعيدًا عما يأمل به من السعادة والمثالية"، وتقدير الذات (عباس عوض، ١٩٧٩م، ص ٣٢) (بتصرف).

لقد أرادت الباحثة أن تعرض ما تعكسه هذه الفترة من مشاعر وإنفعالات ناتجة عن الصراع الدائم بالنفس، والتعبير عن محاولات النجاة من أجل أن يبتعد الفرد بحياته عن أن يصبح مسخًا أو أداةً يتم تحريكها تبعًا لرغبة الآخرين .. فقط لأجل إثبات ذات "آخر" – باختلاف نمط شخصيته، كما ترى الباحثة أن الموضوعات الإنسانية التى تنتج من دواخلنا ومن رحم الضغوط والأزمات، تضيف قيماً جمالية وأبعادًا فلسفية للأعمال الفنية بما تحاول إظهاره من مشاعر مختلفة، تستحق تسليط الضوء عليها وإستكشافها.

jaars.journals.ekb.eg

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٥، "هي الحياة"، Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام تحبير على الورق، *أعمال الباحثة ٢٠٢٢م*
(٥٧×٦٧ سم) × (٨٥×٩٥ سم)

شكل (٦) إسم العمل: " في حضرة أبي " – المقاس (٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم) ، (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار والألوان الخشبية على الورق).

إن "التعامل مع الطفل بمثابة التعامل مع ميزان الذهب"، هكذا يؤكد الطبيب النفسى الإنجليزي "ديفيد جراى David Gray" (١٩٦٤م -) وصاحب كتاب "كيف تتفنن فن صناعة الإستقرار النفسى للطفل"، ويعنى بهذه العبارة أن كل شيء له تأثير في الطفل مهما يظهر لنا ضئيلًا، فالولد لا يقلد أحداً مثلما يقلد والده، فهو أساس قدوته، وخير مثال للتقليد عنده، وقد أشارت العديد من البحوث والدراسات التى أجريت حول أسباب فشل الأبناء وإصابتهم بالعديد من الأمراض النفسية إلى غياب دور الأب، فقد يكون غيابه هذا بشكل مستمر، وقد يكون غيابًا جزئيًا وهنا تقع المسئولية على عاتق الأم، وبإمكانها أن تزرع فى الأبناء الشعور بوجود الأب أو تلغيه، كالعمل " في حضرة أبي"، (حقيبة سفر، أربعة دمي تمثل أسرة مكونة من أم ترتدي رداءً أبيض به رسوم على شكل دوائر، للدلالة على الأبدية والإستمرارية فالشكل الدائري يُشَكِّل الكمال والإستمرارية، وهي دلالة اللانهاية، وفي مدارس الفن الحديث إستخدمت بشكل كبير كعنصر أساسي في العمل الفني، فنجد أن الكثير من الفنانين يستخدم الدائرة للدلالة على مصدر النور، فتسكن الدائرة في السماء متجسدةً في قرص الشمس وفي القمر عندما يصبح بدراً، وكان الفنان الهولندي "فينست فان جوخ Vencent Van Gogh" (١٨٥٣- ١٨٩٠م) أكثر الفنانين إستخداماً للدائرة في تكويناته وفي لمسة الفرشاة وحركتها الدالة على ديمومة الأداء، وتنطلق منها للسماء والأرض، وأحياناً تكون الدائرة هي الضوء، وتكون السماء والحقول، وكأن دلالتها برداء الأم أنها ترتبط بالحياة والحب الذي لا حدود له، وهكذا تكون حركة الدائرة تستوعب الكون كله.. كما الأم تمامًا، تجلس الأم على كرسي عليه معطف زوجها، عاقدة قدميها تلتف القدم على الأخرى دون حذاء، إشارة إلى إستعانتها وإستنادها على أرض صلبة، وحذاء زوجها موضع قدميها على الأرض، برقبتها تتدلى قلادة عبارة عن "ساعة" تشير إلي الزمن والإنتظار فالساعة هي الرمز الأبدي للوقت، وشعر مصفف طويل للدلالة على الغياب وطول السفر وعليه إكليلًا من الزهور للأمل في عودةٍ ورجوع، وثلاثة فتيات صغار، يجلسن علي الحقيبة بيد كل منهن دمية صغيرة، يرتدين ملابس توحي بالترف وبرغد العيش ولكن تعلو وجوههن ملامح حزينة نوعًا ما لغياب الأب، فإظهار البعد النفسي للأطفال الصغار والأم في ملامح وجوههن، فالوجه هو العتبة النصية للإنسان باعتباره سردية أدبية أو فنية، فجميع الحضارات القديمة إحتفت بالوجه، فهو المفردة الأكثر تعبيراً عن الأنا، وتمييزها عن الآخر والمدخل الطبيعي لمعرفة جوهر الشخصية في بعدها الإنساني المتفاعل مع الآخر حتى وإن كان غائبًا).

"حقيبة، معطف وحذاء"، ووضعية جلوس تحمل الكثير من الثقة بالنفس رغم إحتياجها وخوفها المكتوم في نظرتها التائهة، فهذه المفردات البصرية ليست قطعًا ديكورية ولكنها توحي بوجود الأب وحضوره ودوره الأساسي، وإن كان يقع على عاتق الأم الدورين معًا حال غياب الأب، العمل مستوحى عن تجربة ذاتية للباحثة في مرحلة الطفولة.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٦، " في حضرة أبي"، Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار والألوان الخشبية على الورق، أعمال الباحثة ٢٠٢٢م (٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)

شكل (٧) إسم العمل: قُمْ – المساحة (٦٥× ٦٥ سم) × (٩٣× ٩٣ سم)، (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام التحبير على الورق).

في هذا العمل "قُمْ" عبارة عن دمية من القماش، صُنِعَت يدويًا من بقايا قماش في المنزل، بها أثر خياطة وترقيع وهي في الحقيقة لترميم روح متعبة أكثر منه شكلًا جماليًا أو حلًا تشكيليًا، وفم مغلق للدلالة على عدم القدرة على البوح، تتوسط مساحة دائرية قاتمة كالبئر العميق والمظلم، ودائرة أكبر منها أشبه بحدقة العين، تراصت على أطراف الدائرة شخوص بشرية، من الطفل إلي الكهل الذي يستند بيده على عكازه، وعلى الأركان الأربعة للعمل مشاهد لمنازل ومباني تتداخل مع الأشخاص، هذه الدائرة ترمز إلى الدنيا للدلالة على أن هذا المشهد يتكرر في شتى أنحائها، ليس على النطاق الأسري فقط، وترمز هذه الدمية إلي شخص مسلوب الإرادة، فاقدًا للشغف تجاه كل الأشياء حوله، وهذه المعاني إن تجتمع مع بعضها البعض فإننا نتحدث عن شخص أشبه ما يكون بالمسحور، أصيب بطاقة سلبية متمثلة في دبوس معدني في الجانب الأيسر العلوي من الدمية (مكان القلب) أصبح على إثرها فاقدًا للعزم والإرادة والشغف تجاه كل ما يريد أن يفعله، وما هو مطلوب منه أن ينجزه، كُتِب حولها عبارة " قُمْ .. بسم الله الرحمن الرحيم" في شكل دائرة تشبه الطلسم الذي نراه في كتب السحر والشعوذة - " قُمْ " هذا ما يقوله الأب كلما رأى أحد أبنائه يتراخى أو يتكاسل أو يؤجل عملاً أو يهمِلُ واجبًا عليه القيام به ..) قُمْ .. ذلك الرنين الذي يبعث الطمأنينة، ودائمًا ما تستحضره الذاكرة عندما لم يسمح الزمان بسماعها مرة أخرى .. هذه الكلمة "قُمْ" ماهي إلا طاقة حب وعطاء في دائرة تمثل الصيرورة الدائمة لهذا الكون ومصدر الضوء متمثلة في الأب وصوته المحمَّل بالنصح والإرشاد والمثابرة والتشجيع المستمر بكلمات رقيقة تبتعد عن الإهانة والقسوة، فالهدف هو الفرصة للتعبير عن الذات أملًا في المبادرة فيما يزرع الطموح، لبناء إنسان ذي كفاءة يتسم بالمرونة، خلاق يستطيع حل مشكلاته حتى يصبح شخصية متوازنة، ويتحول من شخص عادى إلى قدوة فى كافة مناحى الحياة.

هنا يتضح ضرورة إهتمام المجتمعات البشرية بالمناخ الإبداعي وتنامي حاجات الفكر الأساسية والإجتماعية إلى حاجات تقدم الأفكار الجديدة غير النمطية، لإعداد الفرد بما يمكنه من مواجهة الحياة ومتطلبات العصر"، كذلك يهيئ الأب "المناخ المناسب الذي يصنع ثقة الإبن بنفسه أو يهدمها، يُنَّمِي روح الإبداع فيه أو يمحيها، وهنا يتضح أيضًا أهمية الإهتمام بتنمية التفكير الإبداعي لدي الطفل، فالمبدعون هم أمل الأمة والقادرون على تطوير ذواتهم وبيئاتهم إلى أرقى درجات الفكر والتحضر الإنساني.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٧، " قُمْ"، Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام التحبير على الورق، أعمال الباحثة ٢٠٢٤م (٦٥× ٦٥ سم) × (٩٣× ٩٣ سم)

شكل (٨) إسم العمل: "لو أنني دُمية"، (٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)، (الخامة: Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام التحبير على الورق).

برغم الجانب المظلم للطفولة في الأعمال السابقة نرى في البعض الآخر أو جزء منه انتصاراً لها، فنرى نموذجين متضادين في محيط واحد، من خلال منح الطفل مكانة خاصة بالإهتمام والرعاية بعيداً عن القهر والقمع والكبت، في حين لا يحظى الكثير من الأطفال بفرصة إختيار واقعهم، مكبلّين بالكثير من القيود التي تفرضها عليهم بيئاتهم ونرى تعبيرًا عنها في نظرة عيني تلك الفتاة القابعة خلف النافذة، وذراعيها العاجزتين المرتخيتين اللتين ترغبان في التحول إلي أجنحة، رغبةً في تغيير واقعها الذي يُقَوِّضُ أحلامها، وإيماءتها للأسفل معبرةً لنفسها عن الأسف، لكن هذا الشعور لا يزال حافزاً للإستمرار في المحاولة، يُجَسِّد السلام والحلم الذي تتمناه، ويبدو بمثابة أملٍ لطفلٍ آخر يتمنى أن ينال مايتمناه مثلها.

وفي هذا العمل نرى نافذة قديمة تكسوها خيوط العنكبوت، تعلوه شبورة من الأتربة والغبار المتراكم أمدًا، ذلك غبار الإهمال وعدم الإكتراث، تنظر الفتاة بحسرة خارج الحاجز الزجاجي، إلي كتب ودمية بوجه فتاة آدمي، مرسوم عليه بعض الأشكال التي تُرسَم علي وجوه الأطفال في الإحتفالات وأعياد الميلاد تعبيرًا عن المرح، المتمثل في دمية ترتدي زي البلياتشو أو المهرج بألوان زاهية ومبهجة، تعبيرًا عن السعادة، وإضفاء شيئًا من الحيوية والواقعية، وتأكيدًا على القيم الجمالية وإظهار بعض التأثيرات النفسية، بالإضافة إلي الإيهام بالحركة، ففي التكوين رغم السكون الذي يتضح في إيماءة الفتاة وإستسلامها، إلا أن الألوان الزاهية والصاخبة في الدمية توحي بالإيقاع والحركة، ويظهر زي المهرج متسخًا عليه آثار أتربة وألوان للدلالة على آثار اللعب فالطفل حينما يلعب أو يمسك بالألوان ليرسم فتتسخ ملابسه إنما دليلًا على نفسية الطفل السوية، بأنه يعيش حياةَ متزنة، فاللعب عند الأطفال يُعد مظهرًا صحيًا ووسيطًا هامًا يسهم في نشأة الطفل وتكوينه في هذه المرحلة الهامة من مراحل نموه الإنساني، والساعة الكلاسيكية هنا إشارة إلي المرحلة العمرية الأجمل التي مضت دون أن تلحق بها الفتاة، وعن التعبير بالرسم والألوان فيعتبر الطفل الرسم أحد الأساليب الطبيعية للترفيه واللعب ويلجأ إليه في أوقات فراغه أو بشكل أساسي في حياته، ويساهم في التوازن النفسي له.

jaars.journals.ekb.eg

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٨، "لو أنني دُمية"، Mixed Media رسم رقمي ورسم يدوي بالأحبار المائية وأقلام التحبير على الورق، *أعمال الباحثة ٢٠٢٤م*
(٦٥× ٩٥ سم) × (٩٣× ١٢٣ سم)

شكل (٩) إسم العمل:"الدار ١" المقاس (٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)، (رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF).

يحتل المكان حيزًا كبيرًا من الإنتاج الفني لأعمال الفنانين التشكيليين، فقد وجدوا فيه ما يحتوي ذواتهم ورؤاهم وذكرياتهم، كما أنه يحتوي على مفردات بصرية ذات معانٍ وطاقات تعبيرية وقيم جمالية، تشارك بدورها في صنع أعمال فنية ذات مذاقٍ خاص، ومهما تعددت وإختلفت الفنون البصرية في مضمونها ورسالتها عبر الأزمان، فإنها إرتبطت بعلاقة قوية بالمكان، سواء المكان المرسوم بمفردات بصرية نقية موزعة داخل العمل الفني من أبعاد وكتلة وفراغ وخط ولون، أو تجرد صورة المكان وتعبر عن روحه ولا تعبر عنه واقعيًا، أو ذلك المكان المستلهم والمحاكى في الكون والطبيعة والمدن والعمارة، أو ذلك المكان المختزن والمتخيل في ذاكرتنا وأحلامنا، وهو المكان الداخلي الخاص الذي يربطنا بموروثنا وحاضرنا ومستقبلنا، كما نشاهد في العمل "الدار ١" فالإنتقال الذي يصنعه المكان هنا يمكن أن نصفه بإنتقالٍ رماديٍ، يؤثر في النفس ويوَلِّد فيها كمًا من الحنين والأسى، فيأخذنا المكان إلي مسرحنا الذي كان، يتنقل بين وجوهٍ نفتقدها وتلاحقنا عبر الجدران، حتى نتأمل نسختنا القديمة، أفكار، ضحك، بكاء، وحديث، نتأمل ما تغير وما بقى ثابتًا كما هو، كتقويم لا يُنسى، تود أن لا يتغير، وكتابات على الجدران تبعث في نفسك قدرًا كبيرًا من السمو في كل مرة تنظر إليها، والحب الذي فُزتَ به طيلة حياتك، من خلال كتابات واضحة مقروءة تمثلت في " اَلْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ وَاَلْبَنُونَ نِعَمَ، اَلْحَسَنَاتُ يُثَابُ عَلَيْهَا وَاَلنِّعَم يُسْأَلُ عَنْهَا "، هذا ماكُتِب علي جدار البيت القديم، ربما كشكلٍ من أشكال التذكير بها وإن كان ذلك بصوتٍ منخفض النبرة، وربما لكاتبها .. كي يذَّكِر نفسه كلما قرأها، أو ليذكرنا نحن بين الحين والآخر برسالة حب بخط يده علي جدار أكثر الأماكن المحببة إلي نفسه، ورسوم بخطوط طفولية عفوية لثلاث فتيات كُنَّ يقطُنَّ ويتسامرن هنا يومًا، تستمر بشكلٍ متوارٍ وغير مباشر، وكأن هناك نوعاً من المزاحمة الوجدانية للطفولة بين محاولاتٍ لظهورها بشكلٍ علني عبر هذه النقوش الصغيرة على جدران الزمن كنوع من الإحتجاج على تهميشها أو نسيانها، وسقف معقود بجذوع النخيل وطين الأرض، يميل لإحتضان الأرض ليصبحا نسيجًا وأحدًا، وحديث ممتع يتمثل في تليفزيون قديم يمثل ذاكرتنا وذكرياتنا وذاكرة الأرض الحية، يستقر علي كرسي بمزيج من الطراز الكلاسيكي والحديث، ومرآة نرى فيها إنعكاس أرواحنا وذواتنا وحياتنا القديمة، ممزوجة بالضوء وألوان التراب .. والإضاءة هنا مكثفة واضحة لربط عناصر التكوين، ولتحقيق القيم الجمالية من خلال التباين اللوني، والإحساس بالعمق، وإكساب الأشكال صفة التجسيم، وتحقيق الوحدة والتنوع، وإظهار التعبير الدرامي في التكوين .. في هذا العمل تجسيدًا للصور القديمة والمشاهد بتفاصيلها الدقيقة برؤية واضحة جدًا، وتنتبه الذاكرة وتستحضر ما غاب عنها من كل تفصيل غفلت عن تذكره آنذاك، دائمًا ما يبدو وكأن هناك حاجزًا زجاجيًا بَأبَى الخدش أو التدمير بيننا وبين الزمن القديم، نراهم من خلف هذا الحاجز ولا يرونا، ما يجعل للأمكنة غصةً يظل مذاقها مُرًا في الفم حتى بعد أن نغادرها.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ٩، "الدار ١"، رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF، أعمال الباحثة ٢٠٢٤م
(٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)

شكل (١٠) إسم العمل: (الدار٢) ـ المقاس (٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)، (الخامة: رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF).

لا يقف الأمر على من كان له ذكريات بالمكان، فالعابرين أيضًا الذين يؤثر بهم مكان قديم ويستوقفهم، أو قصدوا زيارته، وربما تركوه وإنتقلوا منه إلي آخر، أو تغيرت ملامحه وطغى عليه التجديد، أماكن عانقت حَكَايا تطغى آثارها وتفيض على معالمها، لأنها لا تمتلك القدرة على سرد ما عاصرته .. فصولًا من طفولة لم تمضِ بعد، تجسدت في دمية زرقاء علي أكوام من بقايا رمال وطلاء، وجاءت الدمية باللون الأزرق، ذلك لما له من قيمة جمالية وتشكيلية وفلسفية أيضًا، فهو دلالة علي التأمّل والتفكير العميق والغوص في أمواج الأفكار والإندماج معها، ومرتبط بالإخلاص، والإلهام والروحانيّة، وله تأثيرًا آخرًا إيجابيًا على الأنماط العقليّة والسلوكيّة والجسديّة التي يمر بها الشخص، في حال خروجه عند السيطرة أحيانًا، والبعد الفلسفي في الإرتباط والتعلق بالمكان، ودرجات سلم قديم بألوان ترابية دافئة تبعث في النفس شعورًا بالإطمئنان ورغبةً للإنغماس في تفاصيله، بينما تكسوه آثار التجديد، من حصى ورمل وذرات تفتت من الجدران، ونراه مائلًا إلى داخل التكوين للدلالة على العمق والغوص في إسترجاع تفاصيل سنوات مضت، فترمز درجات السلم إلي مراحل نمو الإنسان خلال المراحل المختلفة من حياتِه، وإنتقاله من المكان وإليه، إقتصر التكوين علي عنصرين فقط وهما الدمية ودرجات السلم إشارةً إلي الإرتباط بين شيئين أساسيين في حياة الإنسان، فترات لعبه ومرحه والمكان الذي نشأ فيه وتعَلَّقَ به حينما كان صغيرًا بما يحتويه من مشاهد إختزنها في ذاكرته، فنُرى .. ما الذي يدفع الإنسان للوقوف بهذا المكان أو بغيره، وإلى التأمل في رواياته التي أخذته إلى هذه الصورة الحالية، هل هو فضول تجاه التاريخ، أم هى القيمة المعنوية التي تستحوذ عليها تلك الأماكن.

إن منزل العائلة القديم إنما يدل على الرغبة في الإنتماء إلى شيء ما، أو مكان بعينه، والأماكن التي إحتضنتنا صغارًا وإحتضنت بدايات إدراكنا ونضجنا ووعينا هي أكثر الأشياء إنتماءً في أرواحنا، ربما لأننا حين نكبر نبتعد عن هذه الفترات المبكرة من عمرنا، فتصبح بعيدة جدًا إلى الحد الذي نتصور فيه بأننا لم نكن سعداء بالمقدار الذي كان، أو لأن وجود أجواء بعينها مع العائلة قبل أن نُدرك حوادث الحياة وتطوراتها التي قد تعترضنا هي ما كانت تعطي لهذه المراحل لونًا خاصًا، وربما لأن هذه الأماكن حملت بين ثناياها المرات الأولى لنا في كل شيء.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ١٠، " الدار٢ "، رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF*، أعمال الباحثة ٢٠٢٤م*
(٦٠ × ٩٠ سم) × (٨٨ × ١١٨ سم)

شكل (١١) إسم العمل: "في الذاكرة" - المقاس (٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم) (الخامة: رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF**).**

هناك أشياء وأماكن قديمة تحرك بداخلنا كل ما أهملناه وهمشناه في سراديب ذاكرتنا، والتي شهدت من عواصف الحياة كمًا ضخمًا، فالأماكن مرآةٌ للروح البشرية، وإنعكاسًا لمشاعر الإنسان المختلفة التي يتركها بها، إحتضنت قصصًا وحكايا تتجلَّى آثارها على ملامحنا، وتأسر الكثير منا فكرة العودة لهذه الأشياء والأمكنة القديمة، بل .. والإحتفاظ بها، نزيل عنها غبار الأيام، نظل نقلبها بين كفوفنا ثم نعيدها إلى أماكنها بعد أن نظهر ضعفنا أمامها، ومن يتأملها بعمق وتَمَعُّن يستطيع أن يستشعر على صفحاتها كثيرًا من المفردات التي تُلامس الروح، وتبحث في أعماقه عن إنتماءٍ صادقٍ لها، ففي العمل "في الذاكرة" - يتمثل ذلك المعنى في بقايا دمى محطمة، معلقة بين صخور منجم للدلالة على أننا لا نحتفظ بين ضلوعنا إلا بما هو نفيس حتى وإن كان مؤلمًا، فبعض الذكريات رغم قسوتها إلا أنها أحيانًا تمثل أجمل ما عشناه وعايشناه في حياتنا، وتمثل الفجوة التي بالأرض والقضبان الحديدية والتي تأخذنا إلي داخل التكوين وتعطي إحساسًا بالعمق، تلك الخرائب التي يحدثها قطار الزمن في أرواحنا والسنوات التي تمر وتمضي بنا بطبيعة الحال لحركة الحياة، فتُسقط منا أشياءً معنوية عديدة ولم ندرك ذلك، لإنشغالنا بالسير خلف حياتنا، تاركةً لنا مجرد صورًا ضبابية تجسدها تلك الأشياء وبقايا دمى، رأينا فيها أنفسنا حين كنا صغارًا، إنها "فجوة زمنية" تُطفيءُ في أعيننا واقعنا وتبهته، ليصبح الوجود الكامل هنا لها وحدها وللأشياء.

من خلال هذه الدراسة يتضح لنا الدور الأكبر للفن التشكيلي بشكل عام، وفنون الجرافيك بشكل خاص، وذلك لسهولة وسرعة إنتشارها والتطور الهائل في التفاعل مع التكنولوجيا الرقمية والتي بالكاد لها أثر كبير على الممارسات الإبداعية والفنية، في تدعيم وتقويم سلوك الطفل الذي مر في حياته بتجارب مؤلمة أثرت علي نموه وعلى مواطن التفكير والإبداع عنده نذكر منها:

٢. دور الفن التشكيلي وأهميته في الدعم المعنوي وعلاج وتقويم سلوك الطفل:

"لقد كانت الفنون القديمة بأنواعها هي الآلية التي إستخدمها الإنسان الأول ليتغلب بها على مخاوفه التي تحيط به من ظواهر طبيعية أو قوى خفية، حيث صنع تمائم تحمل نقوشًا بهدف حمايته، كما قام بتزيين أدوات الصيد الخاصة به بغرض تمييزها، إلي أن قام بالرسم على جدران الكهوف محاولًا أن يتغلب على التوتر والقلق الوجودي من أحداث الحياة، وقد يكون التعبير بالفن التشكيلي في بعض الأحيان ماهو إلا مرآةً تعكس صراعات الفنان وآلامه التي يعانيها نتيجة ضغوط وقيود المجتمع المحيط به، فيكون عمله الفني هو الأداة التي يُنَفّس بها عما يعانيه بقيم جمالية" (رانيا راضي، ٢٠٢٤م، ص ٢١)

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

شكل ١١، "في الذاكرة"، رسم بالأحبار المائية وأقلام التحبير علي خشب MDF، أعمال الباحثة ٢٠٢٤م
(٦٠× ٩٠ سم) × (٨٨× ١١٨ سم)

وقد أوضحت دراسة لأحد الأطباء والإستشاريين النفسيين في أبحاث علم النفس والمشرفين على تطوير الأبحاث في برنامج غرفة الفن في أكسفورد ببريطانيا في عام ٢٠٠٢م أن "العلاج بالفن التشكيلي يساهم في مساعدة الأطفال المضطربين للعودة إلى حياتهم بشكل طبيعي، وبداية هذا البرنامج كانت منذ عام ٢٠٠٢م لمساعدة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين خمس إلى ست سنوات، وكان معلموهم يقولون أنهم بحاجة إلي الدعم المعنوي والسلوكي، وأثناء نشر الدراسة وجدت برامج أخرى لغرفة الفن ببعض المدارس في بريطانيا شارك فيها أكثر من ١٠،٠٠٠ طفل، وفي دراسة أخرى نُشِرت في دورية The arts in psychotherapy، ذكر الباحثون أن هؤلاء الأطفال الذين خضعوا لهذا البرنامج أصبحوا أقل إكتئابًا، وتضائلت مشكلاتهم السلوكية".

وفى دراسة إكلينيية أُجريَت عام " ٢٠٠٨م، هدفت إلي معرفة مدى نجاح وفاعلية "برامج العلاج بممارسة الفن في التقليل من الإحساس بالوحدة على بعض من طلاب الجامعات من الذكور والإناث، ومتوسط أعمارهم ١٩ سنة ولديهم شعور مرتفع بالوحدة، وبعد التطبيق والمتابعة أوضحت النتائج فاعلية ونجاح العلاج بالفن، ويرجع ذلك إلي أنهم وجدوا الوسيلة المناسبة ليعبروا من خلالها عما بداخلهم وعن مشاعرهم ومعاناتتهم بأريحية من خلال الفن"(عبدالعزيز الدقيل، ٢٠٢٠م، ص ٢٣٤) (بتصرف).

٣. النتائج

- إن عالم الأطفال يمتاز بالبراءة والنقاء ولايستطيع أن يقترب منه إلا قلب صادق وقادر على إيصال صوته، وقد إستطاع الفن أن يقدم جزءً هاماً من صورته عبر أعمال فنية ذات قيمة مما أضاف إليها مضموناً نحتاج إلى التفكير فيه.
- إن زمننا الحالي يحمل كثيرًا من الأسئلة والمشكلات المعقدة والتي يسعى الفن الحقيقي دائماً إلى تقديمها وجعلها في الواجهة أملاً في واقعٍ أفضل، مما يمكننا من الإستفادة بالإيجاب من التجارب السلبية في مرحلة الطفولة لإنتاج إبداع فني جرافيكي.
- عندما يكون الفنان صادقاً، مثقفاً حقيقياً وتلقائياً، يطل من خلال الكثير من النوافذ الفنية وتكون لتجربته أبعادًا أعمق ونظرةٌ أشمل، خاصةً تلك التي تتناول الجوانب النفسية والتجارب السلبية، ويعد الفن أحد طرق علاجها.
- يحتل المكان حيزًا كبيرًا من أعمال الفنانين التشكيليين، فالأمكنة القديمة تقدم لنا مفردات بصرية متنوعة لا سيما تلك التي نحتضن الذاكرة فهي تشارك في صنع أعمال فنية ذات مذاقٍ خاص.
- الأنماط المختلفة للشخصيات في حياة الطفل سلاح ذو حدين فقد يدفع الإنسان للتشاؤم والإضطراب، أو أن يكون الدافع القوي الذي يحفز إرادة الإنسان نحو التعبير والإبداع.
- إن ترقية التعبير الفني الحر لدى الطفل وتنمية إحساسه بالأمان والدعم النفسي، يعني تزويد الطفل بطفولة سعيدة حرة، مما يسهم في الكشف عن العوامل النفسية التي تؤثر بشكل واضح في حياته، وتحفظ بذاكرتة في شكل صور بصرية.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS

- التعبير عن الإنفعالات في الفن يعطي النشء فرصة إظهار بعض ردود الفعل في عملية ربط أنفسهم ببيئاتهم، فتفسير خبرات النشء من خلال الفن يعطي فرصة تبلور ردود الفعل الغامضة التي لا يستطيعون أن يصوغوها في كلمات.
- إن العوامل النفسية التي تؤثر في حياة الطفل وتحفظ في ذاكرته تظل كامنة لفترات طويلة، وتنعكس فيما بعد على رؤية الفنان الجرافيكي الإبداعية.

٤. التوصيات

- إقامة الندوات وتكثيف الأبحاث العلمية والفنية وورش العمل بهدف التوعية والتأكيد على أهمية دور الأب فى تأمين الكيان الأسرى خاصة مع زيادة التحديات المجتمعية المختلفة.
- إنشاء مراكز تأهيلية متخصصة في العلاج بالفن وتقويم السلوك والدعم المعنوي للأسرة والطفل.
- ضرورة الإهتمام بالدور الثقافي والمعرفي للفن وربطه بالدراسات السيكولوجية للطفل للتعرف على الظروف المجتمعية المختلفة والأسباب التي أثرت على البناء النفسي له.
- الكشف عن العلاقة بين الأنماط المختلفة للشخصيات في حياة الطفل والإبداع الفني وضرورة تصنيفها وتتبع تطورها.
- إفساح المجال الفني للأطفال للتعبير عن ذواتهم والكشف عن الأبعاد النفسية في رسومهم ومراقبة تطوّرها وتطور نموّه حتى يصل إلى اللعب والتعبير الحرّ.
- ضرورة الإستمرارية والإهتمام بالبحوث التي تتناول مرحلة الطفولة من الناحية الفنية بإعتبارها أحد المجالات الهامة التي تسهم في تسليط الضوء على المشكلات الحياتية وتقديم حلولًا لها لإعداد أفرادًا قادرين على التفكير والإبداع.
- من الجدير بالتجربة مزج التراث السيكولوجي بالفكر الفني خاصة فنون الجرافيك لما لها من مميزات عن الفنون الأخري لتعددها وسرعة وسهولة إنتشارها، مما يسهم في صنع رؤى جديدة وعرضها داخل سياق فنى يخدم البشرية في صورة نظرية وعملية.
- الإهتمام بتقديم المراجع العربية التي يفتقر إليها المجال البحثي فيما يخص الإنعكاسات النفسية في مرحلة الطفولة لإثراء المكتبات العربية بما يعضد الأبحاث العلمية وخاصة الفنية منها.
- دعوة الباحثين إلى القيام بعمل دراسات وأبحاث مكثفة للكشف عن القيم الجمالية لإبداعات الفنان الجرافيكي التي تتناول الأبعاد الفلسفية في مرحلة الطفولة نظرًا لما تحتويه من قيم تشكيلية لم يتم الكشف عنها جماليًا.
- توجيه الأبحاث الفنية إلى البحث عن أثر الثقافة والمجتمع في الإنتاج الفني ودور فنون الجرافيك ووظيفتها في بناء المجتمع وأثرها على الوعي الجماهيري.

المراجع

آمنة عبدالسلام جاد (٢٠١٩)، الأبعاد النفسية لرسوم الأطفال ودور الفن في بناء شخصية الطفل، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، العدد (٥٤) .https://mbse.journals.ekb.eg/article_136040.html16/2/2024-02:00am

رانيا راضي (٢٠٢٤م) رؤية فلسفية لسيكولوجية القلق الوجودي في أعمال فناني الجرافيك في أوروبا، رسالة دكتوراة غير منشورة، مصر، جامعة الأقصر.

عباس محمود عوض (١٩٧٩)، مدخل في الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك، مصر: دار المعرفة الجامعية.

عبد *العزيز* عبد الرحمن الدقيل(٢٠٢٠) أهمية العلاج بالفن التشكيلي وتطبيقاتة التجريبية المختلفة، مجلة الفنون والعلوم التطبيقية،المجلد السابع، العدد (٤)https://maut.journals.ekb.eg/article_131348.html16/2/2024-02:00am

فتحي جروان (٢٠١٣)، الإبداع مفهومه ومعاييره ومكوناته، الطبعة الثالثة، الأردن: دار الفكر للطباعة.

نيفين المصري، (٢٠١١) "قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح الأكاديمي لدى عينة من طلبة جامعة الأزهر بغزة"، جامعة الأزهر (فلسطين: غزة) كلية التربية، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية،

http://www.alazhar.edu.ps/arabic/faculties/Edu/adv.asp- 16/4/2024-03:20am

المراجع الأجنبية

The Writing of James Madison, Gaillard Hunt, 1904.

مواقع الإنترنت

https://www.rawahel.org-15/4/2024-08:29pm
https://alghad.com-16/4/2024-04:30pm
https://www.aljazeera.net-16/4/2024-01:25am
https://archives.ju.edu-16/4/2024-06:0am.

حقوق النشر ٢٠٢٤ © | لمجلة JAARS